حب الكذب

نحن اليوم فى العاشر من شهر أبريل . لا يزال الكثيرون منا يذكرون أوله بما جاز عليهم ، أو بما أجازوه على غيرهم ، من الدعابات والأفانين ، ولا يزالون يسألون : لم كان أبريل شهرًا يفتتح بالكذب وهو الشهر الذى اشتهر من قديم الأزمنة بافتتاح الربيع وازدهار موسم الحب والحياة والجمال ؟ أهو رمز غير مقصود يقول به الناس للناس : إنها كلها أكاذيب وأحابيل ؟ أو كما قال سليمان الحكيم : كلها باطل الأباطيل ؟

أما أصل هذه العادة فالأقوال فيه أكثر من أن نحصيها فى هذا المقام ، فقد يرجع بعضهم بها إلى رومة القديمة . ويرجع بعضهم بها إلى الهند القديمة ، وكلهم فى الصدق أو فى الكذب سواء .

وليس مما يعنينا هنا أن نفصل بين الصادقين منهم والكاذبين ، فالنتيجة التى لا خلاف فيها أن أصحاب هذه العادة يكذبون فى أول شهر أبريل ، وموضع العجب هنا من جانب علم النفس لا من جانب علم التاريخ . فإذا سأل سائل : متى تعود الناس الكذب فى أول هذا الشهر ؟ فالتاريخ هنا لا يغنينا عن سؤال آخر هو أحق بالتأمل والعناية وهو : لماذا يبحثون عن فرصة

يكذبون فيها ؟ ولماذا يرحبون بهذه الفرصة ويستمرون على الترحيب بها بعد أن عثروا عليها ؟ لماذا لم يتفقوا من قديم الزمن على يوم يصدقون فيه ؟

هذه مسألة نفسية أحق بالبحث من المسألة التاريخية فى هذا الموضوع ، وخلاصتها أن الكذب هو مخالفة الواقع بالكلام أو بالفعال ، وأن الناس لا يحبون الواقع فى كثير من الأحوال . بل يحبون الخروج منه ولو فى بعض هذه الأحوال .

والإنسان لا يخرج من الواقع بكلامه وكفى . بل يخرج من الواقع بحسه وخياله ، كلما أتيحت له فرصة الخروج مما هو فيه .

الرجل الذى يحلم بالسعادة والقوة يخرج من الواقع ويصور الدنيا لنفسه على غير صورتها المشهودة .

والرجل الذى يتخيل الأعاجيب ويخترع نوادر الأبطال يخرج من الواقع الصغير فى نظره ، إلى عالم هو أحق عنده بالتعظيم والإعجاب .

والرجل الذى يتفنن فى تصوير الجمال يخرج من واقعه الذى تراه عيناه أو تراه عيون الناس ، ويدخل فى عالم من عوالم أول أبريل ، سواء ذكرنا فيه الكذب أو ذكرنا فيه البهجة والحب والربيع .

والرجل الذى يعاقر الخمر أو يتعاطى السموم المخدرة يخرج من عالم الواقع وإن اختار مفارقته من طريق عوجاء .

والرجل الذى يعرض عن الدنيا ويقبل على المثل العليا ينفض عنه أثقال الواقع أو يفارقه من طريق قويم .

وقد وصف « بيرون » الأكذوبة وصفًا صادقًا قال : « إنها هى الحقيقة متنكرة فى مرقص البراقع أو معرض المساخر » ... وهو وصف يصدق على الأكذوبة الفنية كثيرًا ، ولكنه لا يصدق دائما على غيرها من الأكاذيب .

وخلاصة هذا كله أن الكذب باب من أبواب الخروج من الواقع يطرقه الناس للمتعة الفنية والراحة النفسية ، قبل أن يطرقوه لضرورات المصلحة وبواعث الرغبة والرهبة ، ولولا أنه يفتح للناس أحيانًا بابًا يفارقون منه واقعهم الذى لا يستريحون إليه ، لما كانت له هذه الغواية فى أول أبريل ، ولا فى سائر الأيام والسنين .

وأخطر الأكاذيب فى الدنيا ظن الناس أن الكذب لا ينجم بينهم إلا لضرورة من ضرورات المنفعة دون غيرها ، وهى ضرورة الخوف من الخطر والعقاب وضرورة الرغبة فى الثواب أو الخير والثناء . فإن الناس يكذبون حين لا يخافون ولا يرغبون ، أو يكذبون كراهية للواقع وحبًا للخروج منه ، سواء من باب المقال أو من باب الأعمال .

ومن أخطر الأكاذيب أيضًا ظن الناس أن الأطفال لا يكذبون ولا يخافون الحقيقة . فيصدقون الأطفال فى كل

ما يقولون ويترتب على هذا التصديق ضرر جسيم ووقيعة بين الكبار من جراء إصغائهم إلى أولئك الصغار ، لأنهم أبرياء لا يحسنون الاختراع ولا يعرفون المصلحة فى إنكارهم لما أبصروه أو سمعوه .

والواقع أن الطفل يكذب لأسباب كثيرة غير الأسباب التى تلجئ الكبار إلى الكذب :

يكذب لأنه لا يحسن رؤية الحقيقة وفهمها ، ويكذب لأنه لا يحسن تذكرها ونقلها والتعبير عنها ، ويكذب لأن تضليله عن الحقيقة أسهل وأسرع من تضليل الكبار ، ويكذب لجهله بالعواقب والتبعات .

ثم هو يكذب لسبب آخر أقوى وأعمق من جميع هذه الأسباب ، وهو تجربة الملكة الجديدة التى خلقت له ولا يزال فى شوق إلى استخدامها ، كما يشتاق كل منا إلى استخدام كل جديد يقع له وكل أداة لم يسبق له عهد باستخدامها .

فالطفل يحاول الكذب كما يحاول المشى على قدميه . وكلاهما حركة جديدة يحاول أن يستمتع بها ويتدرب عليها . فتلك حركة ذهنية وهذه حركة جسدية ، وهو من أجل هذا يحب أن يخترع الأقاصيص لو استطاع ، كما يحب أن يستمع إلى الأقاصيص ، ولاسيما أقاصيص الخيال .

* * *

هذه على الجملة هى الأكذوبة الفنية ، وهذه خلاصة أسبابها وتفسيراتها .

والخلق الإنسانى لا يضيق ذرعًا بهذه الأكاذيب الفنية ولا يبالغ فى الحجر عليها . لأنها لا تضر ولا تؤذى أحدا من قائليها أو المستمعين إليها ، وقد تفيد بعض الفائدة - أو كثيرًا من الفائدة - إذا دفعتنا إلى تبديل الواقع الكريه ، وحفزتنا إلى طلب التحسين والتجميل ، كلما كان الواقع مستحقًا للتبديل .

أما الأكذوبة التى يضيق بها الأدب الإنسانى كلما ارتقى وتقدم فى طريق الكمال . فهى الأكذوبة التى تمتزج بسوء النية وحب الإضرار بالناس . وهذه هى الأكذوبة التى تنكرها الآداب وتحرمها الشرائع والأديان .

هذه الأكذوبة رذيلة خالية من كل حسنة تزكيها حتى حسنة البراعة فى اختراعها . لأن البراعة فى اختراعها من عمل الذكاء لا من عمل الأكذوبة أو الخديعة . فالذكاء هو المحمود على كل حال ، وليس الحمد للكذب أو للخداع .

يقول الأديب الإنجليزى صمويل بتلر : « كل مغفل قادر على أن يخبر بالحق . ولكن لابد للرجل من نصيب من الفطنة ليحسن الإخبار بالكذب .. » .

وهو قول حق إذا أريد به النقل الآلى والمناظر المحسوسة ، ولكن فى هذه الحالة يمكن أن يقال إن المصورة الشمسية تتقن

النقل الآلى إتقانًا لا يستطيعه أبرع الكاذبين ، وكذلك يتقنه ناقل الصوت أو أداة المذياع .

أما إذا أريد بالصدق قدرته النفسية فليس الصدق إذن من السهولة بحيث يتوهم ذلك الأديب . لأن الصدق هنا أصعب من الكذب بكثير : أصعب من الكذب سواء من ناحية الفهم أو من ناحية الشعور أو من ناحية الإرادة والعزيمة والأخلاق . فليس أصعب من فهم الأشياء على حقيقتها والنفاذ إلى لبابها والتجاوز عن قشورها ، وليس أصعب من رياضة النفس على قولة الحق وهى تضير صاحبها أو تثير عليه سامعيه ، أو تغضب عليه ذوى البأس والسلطان ... هنا لا يمكن أن يقال كما قال صمويل بتلر « إنه ما من مغفل إلا وهو قادر على أن يخبر بالحق » بل كل ما يمكن أن يقال إن الإخبار بالحق لا يستطيعه إلا أولو العزم من الناس ، وأن الكذب هنا سهل بالغ فى السهولة ، ولكن لابد للرجل من نصيب وافر من قوة العارضة وقوة الجنان ليخبر بالحقيقة التى يتجافاها الضعفاء .

* * *

اتفق الناس على يوم يكذبون فيه ولم يتفقوا على يوم يلتزمون فيه الصدق ولا يفوهون بما ينقضه أو يخفيه . لأن الاتفاق على الكذب أسهل من الاتفاق على الصدق ، خلافًا لما قال ذلك الأديب .

ولكننا نود أن نتخيل يومًا يتفقون فيه على الصدق الذى يكتمونه فى سائر الأيام . ثم يعقدون المقارنة بين جرائر ذلك اليوم وجرائر أول أبريل ... فأى اليومين يظفر بالرضا وحسن الأحدوثة ؟ وأيهما يتفقون بعد ذلك على تكراره .

لا إخالنى أكذب إذا قلت : إن الاتفاق على تكرار أول أبريل أقرب من الاتفاق على تكرار ذلك اليوم المخيف : يوم الصدق الكاشف والحق المبين .

ذلك ظن صادق لا إثم فيه ، وهو كذلك لا يعيب الحق ولا يعيب الطبائع الإنسانية . لأن الناس لا يتقون ذلك اليوم « المخيف » كراهة منهم للحقيقة نفسها ، بل كراهة لما تظهره الحقيقة من العيوب والأسرار . والناس يحبون النور جدًّا ولا يكرهونه فى وقت من الأوقات ، ولكنهم إذا حذروا من الفضيحة أطفَئوا المصابيح أو تواروا بالحجاب ، كراهة منهم للفضيحة لا كراهة للنور .

وهكذا يستريح الإنسان إلى تمويه الحقائق وتجميل الظواهر والتفريج عن النفس بالخروج من الواقع الذى يثقل عليه . ولكنه لا يستغنى أبدًا عن النور ... وإن خافه أو توارى منه فى وقت من الأوقات .